

أحاديث رمضان ١٤٢٦ هـ - الفوائد - الدرس (٣٦-٢٢) : أصل الخير والشر من قبل التفكير

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٩-١٠-٢٠٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعود الأمين

الفكرة أصل الخير و الشر

أيها الإخوة الكرام، الإنسان تأثيره خاطرة، فإن لم يعالجها معالجة صحيحة انقلب إلى فكرة، فإن لم يتحقق هذه الفكرة انقلب إلى شهوة، فإن لم يقيم هذه الشهوة انقلب إلى إرادة، فإن لم يقف في وجه إرادة لا تليق به انقلب إلى عمل، فإن لم يتبع أصبحت عادة، ومن أصعب الأشياء أن يدع الإنسان عاداته، إذاً الخير يبدأ من فكرة، والشر يبدأ من فكرة.

جاء زعيم غطفان ليحارب النبي العدنان عليه الصلاة والسلام، وهو في خيمته قبيل اشتباك المسلمين في معركة الخندق، جرى جوار بينه وبين ذاته، اسمه نعيم بن مسعود، وهذا قبل أن يسلم، هذا الحوار حوار ذاتي، قال نعيم يخاطب نفسه: يا نعيم، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ماذا فعل هذا الرجل حتى تقاتل؟ هل أسفوك دمًا؟ هل أنتهك عرضًا؟ هل سلب مالًا؟ أين عقلك يا نعيم؟ هؤلاء الذين معه أناس صالحون، فلماذا أتيت لتحاربهم؟ - فكرة - فانتقض من إضجاعه، وتوجه إلى معسكر النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل على النبي، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: نعيم؟! قال: نعيم، قال: ما الذي جاء بك؟ قال: جئت مسلماً، قائد جيش غطفان جاء ليحارب النبي العدنان، فكر تفكيراً سليماً لحظة فانقلب إلى مؤمن، وهل تصدقون أنه فعل شيئاً كان أحد أكبر أسباب النصر في معركة الخندق، أجرى الله على يديه نصر المسلمين، والمسلمون قبيل هذه المعركة كان وجودهم قضية ساعات.

(إذ جاءُوكُمْ مِنْ فُوقَكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْفُلُوْبُ الْحَاجِرَ وَتَظَاهَرَ بِاللَّهِ

الظُّنُونَ (١٠) هُنَالِكَ أَبْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلَّلُوا زَلَّاً شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب)

إنسان يرقى إلى مراتب العظام لفكرة أجراها، وحوار صادق تبعه.

أيها الإخوة، الحكمة اليوم لابن القيم رحمة الله تعالى، وهي في أنواع الفكر، يمكن أن تستخدم هذا الفكر في مئة مليون مجال ومجال، لكن المجالات التي تتف适用 في دنياك وأخرتك محدودة، يقول ابن القيم رحمة الله تعالى:

"أصل الخير والشر من قبل التفكير".

الآن أكبر جريمة تبدأ بفكرة، وأكبر بطولة تبدأ بفكرة، فكرة تنتهي بك إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وفكرة تنتهي بصاحبها إلى نار جهنم، وبئس المصير، لذلك أخطر شيء في الإنسان

فكرة، وما من عمل يقوم به الإنسان في القارات الخمس من آدم إلى يوم القيمة إلا ويسقه تصور، فإن صح تصورك صحيح عملك، وإن انحرف تصورك انحرف عملك.

الفكر في مصالح المعاد

إذاً الخير الكبير يبدأ بفكرة، والشر المستطير يبدأ بفكرة، فأصل الخير والشر من قبل التفكير، فإن الفكرة مبدأ الإرادة، وأنفع الفكر - الآن دققوا - الفكر في مصالح المعاد لأن الآخرة أبدية سرمدية، لأن الخسارة العظمى خسارة الآخرة.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية: ١٥)

أنفع الفكر التفكير في مصالح المعاد، وفي طرق اجتتابها، كيف أصل إلى الجنة؟ وكيف أعرف أسباب الوصول إلى الجنة، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتتابها، أربعة مجالات للتفكير، كيف أفوز بالجنة؟ وما طرق الوصول إليها؟ وكيف أجتب النار؟ وما هي طرق الابتعاد عنها؟ أربع مجالات هي الأولى في عالم التفكير.

أحياناً لعلكم شاهدتم من يحلق ويمسك المقص، ويضرب عشرات الضربات بالهواء، وضربة واحدة على الشعر.

فالإنسان أحياناً معظم تفكيره فارغ، بلا معنى، مضيعة وقت، هذا إن لم يكن التفكير سبب شقاءه، ومعصيته، وانحرافه،

الفكر في مصالح الدنيا

فهذه أربعة مجالات، من أجل المجالات، كيف أصل إلى الجنة؟ وما الطرق الموصلة إليها؟ وكيف أجتب النار؟ وما الأسباب التي بها أجتبها؟ أربعة مجالات، ويليها أربعة:

أفكر في مصالح الدنيا، وفي طرق تحصيلها، كيف أبحث عن عمل شريف دخله يعنيني على زواج، وشراء بيت، وتربية أولاد، مقبول؟ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمت أمرنا، وأصلاح لنا دنيانا التي فيها معاشنا التي فيها معاشنا))

[سنن الترمذى]

إذا أحرزت النفس قوتها أطمأنت، إذاً كيف أبحث عن عمل شريف يرضي الله ، وكيف أكتسب منه رزقاً يعنيني على تحقيق مصالحي في الدنيا المشروعة؟ فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكراً في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، كيف أتجنب الزوجة السيئة؟ كيف أتجنب الولد العاق

؟ كيف أتجنب الأمراض ؟ كيف أتجنب العار ؟ هناك مرض وبيل سببه ضعف الوعي الصحي، سببه إهمال القوانين التي جعلها الله قوام الصحة، وكيف أتجنب الأولاد السيئين لا بد من تربيتهم في وقت مبكر ؟

الإنسان الناجح الذي يجعل فكره في ثمانية مجالات

إذاً ثمانية مجالات، من هو السعيد ؟ من هو الناجي ؟ من هو الفلاح ؟ من هو الناجح ؟ من هو المتفوق ؟ الذي جعل فكره ونشاطه العقلي، وخواطره في ثمانية مجالات، الجنة وطرق الوصول إليها، اجتناب النار وطرق الابتعاد عنها، مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، مفاسد الدنيا وطرق اجتنابها، وعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاة، تفكر بعملك مسموح، تفكر بتطوير عملك مسموح، تفكر في نمو دخلك مسموح، تفكر بالزواج مسموح، تفكر بشراء مأوى مسموح، تفكر بمعرفة الله ضروري، ت الفكر بحضور مجلس علم تعرف فيه سر وجودك، وغاية وجودك، ومنهج ربك ضروري، كيف تجتنب مزالق أهل الدنيا، كيف تجتنب مزالق المعصية، ثمانية مجالات ينبغي أن تشغله عقلك بها، وبينبغي أن تشغله فكرك بها، وبينبغي أن تشغله خواطرك بها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاة، ورأس القسم الأول التفكير في خلق السماوات والأرض، من أجل أن تعرفه، والتفكير في نعمه من أجل أن تحبه، والتفكير في بلائه من أجل أن تخاف منه، والتفكير في أمره ونهيه من أجل أن تطيعه، والتفكير في طرق العلم به من أجل أن تصل إليه، والتفكير بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى من كتابه وسنة نبيه، وما والاهما، وهذا الفكر يسع لصاحب المحبة والمعروف، فإذا فكر الإنسان في الآخرة وشرفها، ودوامها، وفي الدنيا وختتها، وفنائها أثمر له ذلك في الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما فكر الإنسان في قصر الأمد، وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد، وبذل الوسع في اغتنام الوقت.

الفكر الصانع أو المحرم

يمكن أن تفك، ولا أبالغ بـمليون موضوع، كلها لا تنفعك لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل هي مضيعة وقت، ادخل إلى مكتبة قد تجد فيها مئة ألف كتاب، هناك كتاب واحد كتاب مقرر تمحن فيه بعد أسبوع، العقل كل العقل أن تدع كل هذه الكتب، وأن تقرأ هذا الكتاب الذي سوف تمحن به بعد أسبوع، وبينى على هذا الامتحان نجاحك، وعلى هذا النجاح تعينك في الوظيفة، وعلى هذا التعيين دخل، وعلى هذا الدخل زواج وشراء بيت.

إذاً لا بد من أن تصطفى، هذه الأفكار الثمانية الآخرة وطرق تحصيلها، والنار وطرق اجتنابها، والمصالح في الدنيا وطرق تحصيلها، والمفاسد وطرق اجتنابها، هذه الأفكار الثمانية تعلي همة

المرء، وتحي نفسه بعد موتها، وتجعله في واد، والناس جميعاً في واد آخر، أنت في واد والناس في واد، وبإزاء هذه الأفكار الرديئة التي تجول في أفكار أكثر الخلق كالتفكير.

الآن دقوها، نبدأ بمواضيع ليست مجده إطلاقاً، مضيعة وقت، ولا يبني عليها حكم شرعي، كالتفكير فيما لم تكلف به، ولم تحط به فيما لم تكلف به، ولم تحط به، من فضول العلم الذي لا ينفع، يمكن أن نجري مناظرة تبقى سنوات، يا ترى آدم كان طوله كطولنا؟ ٦٠ متراً؟ ما الذي يجدي من هذا الموضوع؟ والله هناك آلاف المواضيع التي تمزق المسلمين، وتضعف قدراتهم، وتجعل بأسمهم بينهم، وهي لا تقدم ولا تؤخر، أحياناً الله عز وجل ذكر قصة في القرآن، ما سكت القرآن عنه نبحث فيه، امرأة العزيز بعد أن تابت إلى الله، هل تزوجها يوسف؟ والله لا أعرف، ولا كنت وقتها، والقرآن سكت عنه، وينبغي أن نسكت عنه نحن، هذا اسمه فضول الفكر، نخوض، ونأتي بالأدلة، الآن من حين لآخر تطالعنا بعض الجماعات الدينية بفكر جديد، أن آدم ليس أبا البشر، هناك آدم قبله، وتنشأ في بلد إسلامي صراعات ومماحكات، وحوارات.

احفظ هذه القاعدة: أي موضوع لا يبني عليه حكم شرعي لا جدوى من البحث فيه مرة زارني طبيب، والله أنا أحترمه وأجله، قال لي: ألفت كتاباً عن مرض النبي الذي مات فيه، قلت: اسمح لي أن أقول لك: هذا الموضوع لا فائدة منه إطلاقاً، لأن النبي مات، ألف مكانه كتاباً حول وصايا النبي الصحيحة كي نتفق بها.

عود نفسك أي موضوع لا ينقلب إلى حكم شرعي تتفق به دعه، الآن نحن مشكلتنا من وقت وعيت على الدنيا إلى الآن عندنا في رمضان مشكلة كبيرة، صحة صومنا ، واختلاف المطالع، والبلد الفلانى أثبتت أول رمضان يوم كذا، وإلى متى هذا الخلاف؟ النبي قال:

((صومكم يوم تصومون))

[أخرج البيهقي في السنن عن أبي هريرة]

أنت في بلد إسلامي، وفيه قاض شرعى هو المسؤول، وكان صيامك ٢٩ يوماً، الحد الأدنى، انتهى، بعد أسبوعين من رمضان: "يا ترى صح صيامنا؟ والله كأن هذا القمر بدر، هناك خطأ في صيامنا، وإلى متى نمضي حيثنا في هذا الخلاف؟ أو في خلاف آخر، التراويف كم ركعة، إلى متى؟ نحن نتمزق، ونستهلك بموضوعات لا تقدم ولا تؤخر.

مرة سئلت على الهواء في إذاعة عن ركعت التراويف، قلت صل ٨، و١٢، و٢٠، وبيتك، وبالمسجد، ولا تفعل مشكلة.

كفى مشاكل، اختار موضوعات مجده، اختار موضوعاً يبني عليه حكم شرعى.

الآن التفكير في ذات الرب، من نوع، خطوط حمراء، العقل البشري ليس له أن يصل إلى هذه الحقيقة، لأن النبي قال:

((تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله فتهلكوا))

[أبو الشيخ <ابن حبان> عن ابن عباس]

والله هناك كتب ومؤلفات في البحث في ذات الله عز وجل، كيف يعلم، وكيف لا يعلم، أنت معاك منهج، وكلفك الله أن تطيعه، ولم يكلفك أن تبحث في ذات الله عز وجل، وهذا الموضوع في حوله خطوط حمراء، لأن عين العلم بالله عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به. أنت واقف أمام بحر، سألت واحداً: كم لترًا هذا البحر؟ البحر الأبيض المتوسط كم لتر؟ إن قال لك: لا أعلم فهو عالم، وإن قال لك: ثلاثة مليارات و٧٧٦ يكون جاهلاً، وأيّ رقم يدلّي به فهو جاهل، لأن معرفة كم لترًا هذا البحر فوق طاقة البشر.

إن عين العلم به عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به، عود نفسك تقول: لا أعلم، الإمام أحمد ابن حنبل من كبار الأئمة جاءه وفد من الأنجلترا، معه ٣٧ سؤالاً، فأجاب عن ١٧، قيل له: والباقي؟ قال: لا أعلم، قالوا: أنت لا تعلم؟! قال: قولوا لهم: الإمام أحمد لا يعلم.

عود نفسك إذا كان الموضوع فوق طاقة البشر أن تقول: لا أعلم، هناك ألف سؤال الآن، أنا لا أملك عنه جواباً، لكنني واثق أن الله حكيم، ورحيم، وعادل، أنا أثق بكمال الله، ولا أعلم الحكمة المحددة من هذا الذي يحدث الآن، لكن بعد حين تكشف، بعد حين تكشف هذه الحكمة.

الآن الفكر في ذات الإله وصفاته مما لا سبيل للعقل أن يصل إليه، هذا الموضوع من نوع البحث فيه،

متفوق في الشطرنج، خير إن شاء الله، متفوق في الموسيقى، في أشكال التصوير، في تحنيط الطيور، في مليون حرفة ومصلحة، أولاً هي غير مشروعة، وإن كانت مباحة فلا جدوى منها، ومنها الفكر في موضوعات، ولو أنها صحيحة فلا حظ للنفس منها، لا بخير ولا بشر، هناك موضوعات لو بلغ الإنسان غاياتها لا تزكي نفسه بها، لذلك النبي الكريم أشار لهذا الموضوع قال: ((اللهم إن أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن عين لا تندمع، ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع، ومن أذن لا تسمع))

[ورد في الأثر]

الفكر في الشهوات، واللذات وطرق تحصيلها.

مرة كنت في الخليج أحضر مؤتمر الأسرة، أجرت بعض الجهات مقابلة مع عالم ثلات ساعات في العلاقات الحميمة بين الزوج وزوجته، والله شيء يندى له الجبين، تفاصيل ! كان له أن يقول: اجتنب الحيضة والدبر، والباقي كله مباح، دخل في المباح وفي تفاصيل لا يستطيع الإنسان سماعها فعالم ولا متابعتها فعالم ولو كان وحده، ثلات ساعات في علم لا ينفع، في شيئاً محرمين، والباقي مباح، أما الدخول في التفاصيل فليس بمفيد، طبعاً هذه الندوة يشاهدها الصغار والكبار فعالم والشباب والشابات، فهناك علم لا ينفع، وإن كان للنفس فيها لذة، لكن لا عاقبة لها فيه.

(قالَ رَبُّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرُفْ عَيْ كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ

(الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف)

في مجال من مجالات التفكير توسم عند الله بأنك جاهل،

الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون

الآن الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، العالم العربي من دون بترويل ما مصيره ؟ الآن بالبترويل ما لنا مخلصين، اترك من دون بترويل مثلاً، لو أن إنسان أصبح ملكاً ماداً يفعل، مت تصبح قل لنا.

سألني مرةً أحدهم سؤالاً: ما حكم اقتناء القنبلة النووية ؟ قلت له: قبل أن تسأل ما الحكم اقتن هذه القنبلة أولاً، بعد هذا أجيبك.
هناك مجالات لا تقدم ولا تؤخر،

الفكر جزئيات أحوال الناس

الآن الفكر في جزئيات أحوال الناس ومداخلهم ومخارجهم، وما إلى ذلك.

((منْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْتِيهُ))

[رواه الترمذى وابن ماجه، عن أبي هريرة]

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس]

تجد الرجل يسهر إلى ساعة متأخرة من الليل، والحديث عن زيد، لماذا طلق زوجته؟ يا ترى خانته؟ عنده رغبة جامحة في أن يتبع عورات الناس في بيوتهم، الفكر في دقائق الحيل والمكر، أساليب لا تقدم ولا تؤخر.

قال أحدهم لأبيه: أنا قرأت كتاباً عن تزوير العملة، فن تزوير العملة، هل تستطيع أن تعمل هذا العمل؟ أو كتاب عن سرقة البنوك، أو عن ملفات الأمن الجنائي في بلد أصبحت مكتشفة من خمسين سنة، قرأ كتاباً ممتعًا، هناك موضوعات ممتعة، لكنها غير مجده.

أنواع الشعر وصروفه وأفانينه

أنواع الشعر وصروفه وأفانينه في المدح والهجاء، تجد المديح لا يقدم ولا يؤخر، أحد الشعراء وهو البحترى مدح ثلاثة خليفة وحاكمًا وأميرًا، ثم هجرهم، قبل أن يأتي يمدحه، ثم يذهب فيهجيه، هناك غزل، هناك هجاء، هناك موضوعات لا تقدم ولا تؤخر، مثلاً الشاعر الفلاني شاعر الغزل الإباحي تجد له مكانة كبيرة، ويتحدث عنه، وله أسبوع معين، لو أنتي قيمت نشاطاتنا الفكرية تقريباً شرعاً تسعه أعشارها باطلة، ولا جدوى منها إطلاقاً، ومنها الفكر في تصورات ذهنية غير موجودة بالأصل، حتى هذه موجودة في الفقه، أحياناً أحكام حالات لا تقع بالمليون سنة مرة، بها أحكام معينة، ولها تفاصيل.

الخلاصة

إخواننا الكرام، أن الحقيقة الحديثة عن الجوانب الغير مجده بالفكر لا تعد ولا تحصى، فالبطولة أن تفك في ثمان في الآخرة، وطرق تحصيلها، في النار وطرق اجتنابها، في صالح الدنيا وطرق جلبها، في مفاسد الدنيا وطرق الوقاية منها، هذا شيء ينفعك في دينك ودنياك، والدعاء الشهير: ((اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلاح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلاح لنا آخرتنا التي إلينا مردنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر))

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنا، آثرنا ولا تؤثر علينا أرضنا وارض عنا، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آلله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين